بحوث مترجمة

# ذكريات الحج: روايات جنوب آسيوية [١]

أ. د. باربرا د. ميتكالف [٢]

**ترجمة: د. لمياء بنت محمد بن صالح باعشن**
قسم الأدب الإنجليزي - جامعة الملك عبدالعزيز

يُعدُّ الحج إلى مكة المكرمة بلا شك، إحدى الظواهر العظيمة في تاريخ الشعوب المسلمة. ولقد أجريت دراسات عديدة على هذه الظاهرة من منظور العصور الوسطى الذي يركز على اكتساب الحكمة من خلال الرحلات، ومن منظور القضايا الإدراية الحديثة ومواضيع البحث في الطقوس الدينية[٣].

(١) نشر هذا البحث بالإنجليزية في كتاب «الرحالة المسلمون Muslim Travellers» (نيويورك ١٩٩٠م) تحرير الدكتور ديل إيكلمان والدكتور جينز بيسكاتوري، وجاء هذا البحث في الفصل الخامس بعنوان :

"The pilgrimage remembered: South Asian accounts of the hajj"

(٢) أستاذ في التاريخ بجامعة كاليفورنيا في ديفز . لها كتاب بعنوان "الصحوة الإسلامية في الهند البريطانية"

Islamic Revival in British India, (Prinveton University Press, 1982)

وحررت كتابًا بعنوان "السلوك الأخلاقي والسلطة: مكانة الأدب في الإسلام الجنوب آسيوي"

Moral Conduct and Authority: The Place of Adab in South Asian Islam, University of (California Press, Berkeley 1984).

(٣) للاطلاع على مقدمة عن هذه الموضوعات، انظر: برنارد لويس "الحج" في الموسوعة الإسلامية. الطبعة الثانية (١٩٧١) بالإنجليزية (بريل) ٣/٣١ - ٣٨. عن الأمور الإدارية، انظر: ديفيد لونغ "الحج اليوم" جامعة ولاية نيويورك، (١٩٧٩) ووليام روف "إدارة الحج من ماليزيا والإداري الأول للحج الماليزي" (الجامعة =

وتقدم هذه الدراسات بدورها المقام الأساس لقيام مدخل بديل يستشف دلالات ظاهرة الحج ويتفحص المتشابهات والمفارقات في تجارب المسلمين على مدى السنين. وتفتح الروايات التي سجلها الحجيج أنفسهم مجالاً لتحليل التجارب الفردية ومقارنتها بالخلفية الاجتماعية والعالم السياسي اللذين أفرزا هؤلاء الأفراد. أما هذه الروايات فهي رحلات خارجية وداخلية في الوقت نفسه، وتعمل كدليل لنا لتتبع متغيرات أنماط المدارك الدينية وكذلك للخوض في عالم يمر في مراحل انتقالية على مستوى تكنولوجي واجتماعي وسياسي.

ظهرت الروايات الجنوب آسيوية(٤) لأول مرة في فترة الحكم البريطاني، وهي فترة تتسم بمحاولات معقدة وشاملة لإعادة التعريف بالإسلام والحياة الجماعية، ثم استمرت منذ عام ١٩٤٧م في ظل جمهورية إسلامية وحكومة علمانية يعيش فيها المسلمون أقليّة. أما في هذه الأيام، فالروايات تُكتب في عالم أصبحت فيه القيم الإسلامية والشخصية المسلمة ذات شأن عظيم، والحج الذي يُوصف بين طيّاتها يُظهر لنا أبعادًا مهمة للإسلام كدين حديث، كما يُظهر أشكالاً لتصوير المسلم لذاته ولحياته الاجتماعية ولاندماجه في كيان واحد من خلال المتعايشات الفردية المتميزة.

= الوطنية بماليزيا، ١٩٧٥م) و "الصحة والأمن: الدول الاستعمارية والحج في القرن التاسع عشر" الدراسات العربية، العدد ٦ (١٩٨٢م) ص ١٤٣-١٦٠ عن الحج من حيث طقوسه، انظر: وليام روف "الحج وتاريخ الأديان" في كتاب "المدخل لدراسة الإسلام في الدراسات الدينية" تحرير ريتشارد مارتين (مطبعة جامعة أريزونا ١٩٨٥م) ص ٧٨-٨٦، وبارتن (١٩٦٧).

(٤) كما سيتضح من النقاش التالي، فكتابتي عن النصوص الجنوب آسيوية ستقتصر على تلك التي كتبت في معظمها بالأوردية، وقليل منها بالفارسية، وحفنة ترجمت من الإنجليزية أو كتبت بها.

## نطاق الروايات(*)

تأخذ روايات كُتّاب جنوب آسيا عن الحج أشكالاً متعددة كأدب الرحلات وأدب المذكرات والرسائل ودليل السفر(٥)، وهي تصف بطرق مختلفة وبدرجات متنوعة تجارب السفر وتقويم الآخرين وحضاراتهم ومعاني الحج، ورموزًا أخرى رئيسة في حياة المسلم الدينية، فتكون بذلك تقريرًا يصور شخصيات الحجيج أنفسهم الذي يكتبون هذه الروايات.

ومن بين هؤلاء الكُتّاب المفكرون المشهورون مثل مولانا صديق خان بهوبالي (١٨٧٢) والشاعر شفتا (١٨٤١) ونوّاب رامبور (١٨٧٢) وأدباء هذا القرن مثل عبدالمجيد داريابادي (١٩٢٩) وشوريش كشميري (١٩٧٦) ورجال السياسة كمحمد ظفر الله خان (١٩٦٧). وقد تأثر عدد كبير جدًا من الكُتّاب بالنظام الذي ظهر تحت الحكم البريطاني، فهم من أصول عريقة ويجيدون الأوردية بطلاقة، وينتمون إلى عائلات لها صلات متشابكة مع

(*) ركزت هذه المقالة على نماذج مختارة من الرحلات الآسيوية، في حين يوجد كثير من الرحلات التي دونت باللغة الآوردية التي لم تتطرق إليها الباحثة، ولا تؤيد بعض ما ذهبت إليه (المحرر).

(٥) بعضها في حصيلتي الآن وبعضها استفدته من الاطلاع على ما يقارب ١٥٠ رواية. ولقد وجدت هذه النصوص في لندن (المكتبة البريطانية، أرشيف وزارة الهند)، وفي لاهور (مكتبة ديال سينغ، مكتبة الكلية الشرقية، مكتبة بنجاب العمومية، ومكتبة جامعة بنجاب) وفي إسلام أباد (معهد البحوث الإسلامية) وفي مكتبات جامعة كاليفورنيا. وأنا ممتنة للعاملين في تلك المكتبات جميعها وللدكتور محمد خالد مسعود من معهد الدراسات الإسلامية لمساعدته الكريمة. وقد تحصلت على بعض الكتب أيضًا من محلات بيع الكتب في لاهور ودلهي، وكذلك من مجموعة رائعة للروايات من محلات بيع كتب قديمة في حيدر أباد بالهند توصلت إليها بخبرة ومهارة الدكتور غيل مينو. أما الدكتور مايكل فيشر فقد قدم لي نصًا لرواية كتبها شخص من كيرالا، وقدم الدكتور فرانسيس روبنسون نصًا آخر كتبه شخص يدعى فرنجي مهالي. هذا ولم أجد الفرصة بعد لتفقد المكتبات في الهند حيث يوجد - كما أظن - روايات أكثر.

القطاعات الحكومية والمهنية والعقارية[٦]. ولكن يبقى منهم من ليس له الخلفية الاجتماعية نفسها، فخواجة حسن نظامي، وهو من أسرة صوفية وشخصية معروفة في العقود الأولى من هذا القرن، قد عرض مثلاً مذكرات حرفيّ كتبها شخص يدعى مستري شيراقو الدين بصروري (١٩٢٦) وأكد على قيمتها وهو يقول للقارئ : إن الاعتراض على لغتها الأوردية لا يجدي شيئًا بما أن الكاتب نفسه كان بنجابي. كما كتبت النساء مجموعة من الروايات مثل زوجة كابتن حربي في مدراس (صبا مصطفى ١٩٧٩) ومديرة مدرسة سابقة في لاهور (زينب كاكاخيل ١٩٧٦). هذا وقد أُصدر مؤخرًا الكاتب المعروف إمداد سابيري أول جزء من سلسلة روايات الحج التي كانت في حوزة عائلته. فالروايات إذًا تشكل موضوعًا ملموسًا ومحددًا طرقه العديد من شهود العيان على مدى طويل من الزمان.

ولكن ربما كان مستغربًا أن تتركز الروايات في عهد الحكم البريطاني وما تلاه من سنين، فعلى الرغم من أن أدب الرحلات الرائع قد كتب باللغة العربية في القرون التالية للعصر العباسي، إلا أن هذا النوع من الكتابات لم يستمر في المجتمعات الإسلامية على العموم[*]. أما في شبه القارة الهندية فحتى المسافرون أنفسهم الذين زاروا مكة والمدينة لم يسجلوا انطباعاتهم عن تلك الأماكن المقدسة قبل القرن الثامن عشر، ما عدا كتابة بعض الرؤى التي تبدت لهم أو تأليف أطروحات

(٦) "حضارة الشريف" هذه نشأت في القرن التاسع عشر كما يذكر ديفيد ليفيلد "الجيل الأول في أليغارا التضامن الإسلامي في الهند البريطانية" (مطبعة جامعة برينستو، ١٩٧٩م) ، الفصل الثاني.

(*) ما أشارت إليه الباحثة هنا غير دقيق؛ لأن أدب الرحلات استمر، وهناك الكثير من المؤلفات المخطوطة والمنشورة التي تتعلق بالرحلات (المحرر) .

نظرية خلال تواجدهم في تلك الأماكن[٧]. ففي عام ١٧٨٧ كتب شخص يدعى مولانا رفيّ الدين مراد أبادي (إصدار ١٩٦١) - وهو من أتباع أستاذ الحديث العظيم ومصلح دلهي شاه ولي الله - وصفًا لرحلة الحج التي قام بها، وهو وصف جعله الكتاب الهنود بعد ذلك أول وثيقة تكتب في هذا الصدد من شبه القارة الهندية. ولم يتبع هذا التقليد سوى القليل من الحجاج على مدى مئة عام وليت ذلك، ولكن الإنتاج يشهد ازدهارًا ما بين عامي ١٨٧٠م و ١٩٥٠م حيث تصدر العشرات من الروايات. ومنذ ذلك الوقت أخذ الكثير من الناس في كتابة رواياتهم فتضاعف عددها في العقود الأربعة الماضية عما كان عليه في العقود الثمانية السابقة[٨] . وبالطبع فقد سجل عدد أكبر من المؤلفين رسائل وروايات لم تطبع واحتفظ بها الأهل والأصدقاء.

**سجل عدد أكبر من المؤلفين رسائل وروايات لم تطبع واحتفظ بها الأهل والأصدقاء**

الكتابة عن الحج كما يبدو هي ظاهرة حديثة تتسم بسمات الكتابات الأخرى التي ظهرت في المرحلة نفسها بما في ذلك أدب الرحلات التي وصل أصحابها قارة أوروبا[٩].

(٧) انظر: ميشيل بيرسون : ١ - "الحج من الهند المغولية" مجلة أنديكا، العدد ٢٣ (١٩٨٦م) ص ١٤٣-١٨٨. ٢- "المسافرون المتدينون: الحجاج المسلمون من الهند في الفترة الحديثة المبكرة" بحث لمؤتمر في أستراليا (١٩٨٧م). ٣- "الوثائق البرتغالية والتاريخ الهندي : حالة سوق الحج" (مخطوط ١٩٨٧م) .
يقترح بيرسون أن ١٠,٠٠٠ حاج كانوا يقصدون الحج كل عام في عهد موغل. وأفضل مثال مشهور لبدايات الكتابة عن التجارب في الحجاز هو رواية شاه ولي الله (١٧٣٠) فوز الحرمين، وهي مجموعة من رؤى تجلت له.

(٨) وذلك باعتبار أن هناك تناسبًا بين أولئك الذين ذكرتهم والمجموع الذي كتب فعلاً.

(٩) أعرب هنا عن امتناني للدكتور ج. ب. س. أبيروي لتذكيري بذلك، ولإشرافه على حلقة بحث حيوية تدور حول عملي في محاورات البحوث الاجتماعية بجامعة دلهي في ١١ ديسمبر ١٩٨٧م.

## روايات الحج بصفتها نوعًا أدبيًا حديثًا

من الواضح أن هنالك علاقة وثيقة بين نشوء الرغبة في الكتابة وبين التغييرات التي أحدثتها الهيمنة البريطانية والتكنولوجيا الغربية، فدور الطباعة يسّرت نشر الكتب، كما يسّرت وسائل المواصلات الحديثة حركة السفر والترحال. لذا فقد بدأ الكتاب في اكتشاف عوالم جديدة، ومن ثم اكتشفوا طرقًا جديدة للتفكير والتعبير عن أنفسهم. وأول كاتبين مسلمين من الهنود سجلا تفاصيل رحلاتهما إلى أوروبا، مثلاً، كانا ينحدران من مناطق البنغال وعوز التي كان لها اتصال عميق بالبريطانيين في أواخر القرن الثامن عشر. فالرحالة العوزي مرزا أبو طالب خان كان موظفًا بإدارة الإيرادات في شركة شرق الهند، وكتب وصف رحلاته - جزئيًا على الأقل- بعقلية القراء الأوروبيين(١٠).

وتشترك روايات الحج في خواص متميزة مع غيرها من الصيغ الأدبية الجديدة التي يجد فيها المؤلف مجالاً لتكوين شخصية درامية تمثل نفسًا إنسانية ذات تجارب ومدركات ومشاعر متفردة، شأنها في ذلك شأن السيرة الذاتية التي ظهرت في تلك الفترة الزمنية. وبدأ المؤلفون في تمثيل أنفسهم ليس راصدين للأحداث فحسب، بل ومشاركين فاعلين فيما يتم وصفه، وعليه نرى أن الحاج وليس الحج هو الذي يتصدر مسرح الأحداث.

وتأخذ عدد من الروايات صفات القصة الأدبية بما في ذلك الفصول الدرامية والمحادثات المنقولة مباشرة، بينما عزف البعض عما يمكن تسميته بالإطار العام لروايات الحج - حيث

(١٠) المؤلفان هما شيخ اعتصام الدين من البنغال ومرزا أبو طالب خان من الكنغو، كما يذكر لويس (١٩٨٢).

تكون البداية مع الشروع في السفر وتتصاعد الأحداث إلى قمتها في الوصول إلى المكان المقصود، ثم تتراجع في وصف متناثر لرحلة العودة للوطن- ليتم بناء القصة فيها على قاعدة أخرى[١١]. هذا وقد تولّى أدباء مشهورون كتابة أكثر روايات الحج رواجًا في العقود العشرة الأخيرة، فنجد الروائي ممتاز مفتي يوضح في اعتذاره الافتتاحي أنه ليس بصدد كتابة موضوع تسلية ولا رسالة دينية، بل قصة حياة بسيطة لزائر الأماكن المقدسة "مجهول وجاهل، لكنه مؤمن صادق"، ثم يبدأ في سرد سلسلة من الفصول المبينة للدوافع التي أدت به - باعتباره أحيانًا علمانيًا ويساريًا - إلى القيام بهذه الرحلة .

ويظهر في دراسات أدب الرحلات الفارسية والجنوب شرق آسيوية، بما فيها أدب الحج، بشكل عام نمطًا مماثلاً، فيجد فراجنر (١٩٧٩)[١٢] أن أقدم المذكرات الفارسية التي ظهرت في القرن التاسع عشر ما هي إلا روايات عن الرحلات، أما في القرن العشرين فيجد أن الكتابة تميل إلى شكل السيرة الذاتية وإلى ما يسميه بـ "التطور والقدر" لذات الفرد التي أصبحت علامة فارقة في سجلات رحلاتهم ومذكراتهم. هذا ويحدد ماثيسون وميلنر (١٩٨٤)[١٣] في تحليلهما لخمس نصوص

(١١) في تحليله لأدب الحج ما قبل تشوسر الذي قام به حجاج مجهولو الهوية إلى القدس، يجد دونالد هاورد "الكُتاب والحج" (مطبعة جامعة كاليفورنيا، بركل، ١٩٨٠م" أن إدراج رحلة العودة - وذلك تقليد واضح يتبعه الرهبان الذين تنتهي رواياتهم بشكل عاطفي وكلب الدير يهرع نحوهم مرحبًا بهم - دليل على أن الرواية تركز على التجربة الشخصية أكثر من تركيزها على تفاصيل الرحلة الخارجية.

(١٢) بيرت فراجنر "أدب الرحلات الفارسي كمصدر للتاريخ الحديث الإيراني" (نيسابادن فرانز ستاينر، ١٩٧٩م) بالألمانية.

(١٣) فرجينيا ماثيسون و أنتوني ملينر "انطباعات عن الحج؛ خمس نصوص ماليزية" (معهد الدراسات الجنوب شرق آسيوية سنغافورة، ١٩٨٥م) بالإنجليزية.

ماليزية موضوعًا مشتركًا يتمثل في التركيز المتزايد على التجربة الشخصية في معظم النصوص الحديثة.

ويبدو أن روايات الحج لم تنشأ نوعًا منفصلاً لتكون مجرد استمرار لشكل متجمد منذ العصور الوسطى، بل هي نوع متطور يجاري الرواية الحديثة وأدب السيرة الذاتية. بالإضافة إلى ذلك فإن تلك الروايات يجب أن تُقرأ في إطار تراجم السيرة الحديثة، وبخاصة التي كتبت عن حياة الرسول محمد ﷺ، وهو موضوع تفجر الاهتمام به منذ أواخر القرن التاسع عشر(*). وازداد التأكيد على تمثيل الرمز الإسلامي الجوهري للإيمان كلما اشتد التركيز على قضايا الهوية الشخصية والتفرد. ويظهر هذا التأكيد واضحًا ليس في التراجم والشعر فقط، بل وفي التركيز التجديدي على أحاديث الرسول ﷺ وفي الاحتفال المتزايد بالطقوس التعبدية المتعلقة بمولد الرسول ﷺ. وبما أن الحج إلى مكة المكرمة يتضمن في الغالب زيارة قبر رسول الله في المدينة المنورة(**)، فإن الروايات قد تشتمل على تأملات في الرسول ﷺ أيضًا(١٤). ومن الضروري أن تتم قراءة هذه الروايات في ضوء كوكبة لا تتغير وإن كانت متحركة ولها ثلاثة أقطاب: تغييرات في المجتمع عامةً، وتغييرات في مفهوم الفرد، وتغييرات في دلائل الرموز الدينية الرئيسة، ومنها رمزين لهما صلة

(*) الاهتمام بسيرة المصطفى ﷺ مستمر ولم ينقطع في المجتمعات الإسلامية. (المحرر).

(**) ما يصنعه بعض المسلمين من طقوس الاحتفال بمولد الرسول ﷺ وزيارة قبره ﷺ مما لا يحل شرعًا ؛ لأنه بدعة، ولم يؤثر عن السلف الصالح. (المحرر)

(١٤) للاطلاع على مادة غنية تجمع ما كتب عن مكانة الرسول ﷺ في العصر الحديث، انظر آني ماري شيمل "ومحمد رسول الله" (مطبعة جامعة نورث كارولينا، ١٩٨٥) بالإنجليزية.

مباشرة بموضوع الدراسة وهما الحج والرسول ﷺ(١٥).

وقيمة الحج الدينية لم تتناقص في العصر الحديث، ومقارنة بالحج الأوروبي المسيحي، فتلك القيمة لا تتعرض حتى للنقاش، فالحج واجب شرعي وفريضة حميدة لا يشوبها شائبة، ودائمًا يفضل أداؤه. أما الحج المسيحي إلى بيت المقدس أو إلى أضرحة القديسين فهو أمر شائك، وكان كذلك حتى في القرون التي ازدهرت فيها هذه الممارسات. ويتطرق شك مماثل إلى حج المسلمين لقبور الأولياء الذين يتشدد لهم مريدوهم إلى حد يجعلهم يجعلون زيارتهم للقبور مساوية للحج(١٦). أمّا ما يدور من تساؤلات حول الحج فليس له علاقة بالتغير الحديث، بل يعود بل يعود إلى بعض الطرق الصوفية التي تقلل من شأن الممارسات

(١٥) انظر: بيتر براون "المجتمع ما وراء الطبيعة" مجلة ديدالوس، العدد ١٠٤ (١٩٧٥م) بالإنجليزية. للاطلاع على مناقشة التغييرات الاجتماعية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ميلادي التي أحدثها تفرق وقلة ترابط المجتمعات فتأثرت العلاقات الإنسانية ومفاهيم ما وراء الطبيعة "كامتداد علوي للفرد". ويصف كولين موريس "اكتشاف الفرد ١٠٥٠-١٢٠٠" (نيويورك، ١٩٧٢م) بالإنجليزية. رؤية جديدة للسريرة في القرن الحادي عشر الميلادي كما توضحها المواعظ التي تصور التجربة الخاصة والشعر الغنائي والطقوس الحافزة والاعترافات بالتشديد على الإرادة الفردية والصورة الشخصية. وكان المضمون الجديد لتفسيرات الرموز الدينية هو الأدوار الاجتماعية الجديدة مع التركيز الجديد على العلاقات الشخصية وعلى معاناة عيسى عليه السلام، والتفاني في الإخلاص له وفي إعادة النظر في مكانة العذراء. وقد شهدت عصور أخرى بالطبع مثل هذا التفاعل المعقد بين التغييرات الاجتماعية والرموز الدينية والنفس الإنسانية، ولكن هذه الفترة خاصة حظيت بالدراسة المتعمقة.

(١٦) هذا هو الحال بالنسبة لزيارة مريدي السنغال إلى طوبا، وزيارة مريدي جافانيز إلى ديمة. وكذلك الحال كما يبدو بالنسبة لضريح سلطان أبو يوسف (١٢٥٨-١٢٨٦م) في الرباط حيث تقضي التقاليد أن الدوران حول المحراب سبع مرات يساوي الرحلة إلى مكة : إلينجهام ومكفي "الدليل الأولي للمغرب" (لندن، ١٩٨٥م) بالإنجليزية، . وفي الوقت الحالي تعتقد جماعة زكري من البلوش، التي قام بدراستها الدكتور أكبر س. أحمد، أن هنالك مزارًا في ماكران له المكانة القدسية نفسها.

الخارجية(*) التي لا علاقة لها بالصفاء الداخلي(١٧).

وليس من المستغرب أن يكون هنالك تهكم حيويّ تجاه ممارسة لها كل هذا الإجلال، فالحج يمكن أن يعدّ إما غطاءً للجشع الدنيوي - إيجاد الاتصالات لتسهيل التهريب - أو ممارسة تشريفية. ولكن الحج بقي بعيدًا عن كل إمكانية للتصغير من شأنه.

وشهدت العقود الحديثة تصاعدًا في الرغبة في أدائه ليس في جنوب آسيا فقط بل في كل المجتمعات الإسلامية حتى وصل عدد الحجاج سنويًا إلى مليوني حاج. وكما يوضح لنا مكدونل فإن تيارات الإصلاح الحديثة قد شجعت بالفعل القيام بفريضة الحج كما سهلت وسائل المواصلات الحديثة. وكانت الطقوس الإسلامية كالحج تعدُّ في فترات الإصلاح جزءًا أساسًا من التقوى والواجبات الأخلاقية وأبعد ما تكون عن مجرد بديل لهما(١٨).

ومع بداية القرن التاسع عشر في أوروبا نجد أن أدب الرحلات قلما يتطرق لموضوع الحج الذي بقى صورة رمزية، وحل محله حب المغامرة والرغبة في اكتشاف المجهول(١٩). ولقد حوّل هذا

(*) هذه الرؤية الصوفية غير صحيحة، ولا تعد رؤية واسعة يؤيدها الكثير، وإنما هي ضيقة وشاذة. (المحرر)

(١٧) وكذا فإن شاعر القرن الثامن عشر البنجابي بوله شاه يحتفي بحب هرلرانجها كحب الروح لبارئها.

(١٨) للاطلاع على موضوع "الإصلاح" في الطقوس الإسلامية، انظر جراهام (١٩٨٣).

(١٩) ينطبق هذا القول على شخصيات مشهورة مثل بايرون، أو مسافرة مثل السيدة فاني باركز "رحلات حاج للبحث عن الصور الرائعة" (كراتشي، مطبعة جامعة أكسفورد، ١٨٥٠م وأعيد طباعته ١٩٧٥م) بالإنجليزية. التي تجولت في الهند في العشرينات والثلاثينات من القرن التاسع عشر. وعندما عادت =

السعي الرومانسي وراء المخاطر - وهو الأسلوب المتبع في أدب الرحلات - فكرة الحج إلى صورة جديدة تمثل الرحلة إلى داخل النفس التي لا تشتبك في صراع مع المغريات الخارجية التي شغلت العصور الوسطى ولا مع قوة الطبيعة التي تصدى لها مثل ديفو، وإنما كانت الهوية الذاتية هي التي تشكل ملامح التحدي (هوارد ١٩٨٠: ٨). ونحن نسلِّم جدلاً في الوقت الحالي بأن السفر بطبيعته ينقل الفرد من روابطه ومعارفه المحلية ومن بين قومه ولغته المألوفة ليضعه في وسط معيشي وطرق تفكير خارجية؛ مما يجبره على الأقل في إعادة التفكير برؤية وحساسية في هويته الشخصية. وكما يقول س. نيبول: "كل السفر عبارة عن انقراض تدريجي للنفس" (١٩٨٤: ٦٥)[٢٠].

ولكن الحج، حتى وإن ظهرت به سمات المغامرة أو التبيان العملي للسفر أو اسكتشاف خبايا النفس الداخلية، فإنه يبقى فريضة بالمعنى المحدد الذي يدل على القيام بزيارة الكعبة في مكة تبعًا لأحكام منصوص عليها لأنها واجب أساس على المسلم القادر.

وكلمة الحج ليست صورة مجازية شأن الكلمة باللغة الإنجليزية حتى إن استخدمت وسيلة للتعبير عن السعي الشخصي وراء ضالة منشودة؛ لأن الحج يظل - كما هو - البناء الأساس لما تقتضيه تجربة الحج. أما التجربة ذاتها التي تبلورها

= السيدة باركز إلى لندن أنهت الجزأين الذين كتبتهما عن رحلاتها بقولها: إنها قد علّقت عصاها الطويلة ونزعت المحارة من قبعتها وتلك هي رموز العصور الوسطى عن الحج إلى معبدسانتياجو في كمبوستيا (٢: ٤٩٦).

(٢٠) يبدأ نيبول روايته المطبوعة عن رحلة له بنقل هذه الافتتاحية من دفاتره الخاصة: " كل الرحلات تبدأ بالطريقة نفسها. كل السفر نوع من الانقراض التدريجي للذات" شيفا ينبول. "رحلة لم تكتمل" (نيويورك، مطابع فايكنغ، ١٨٨٤م) بالإنجليزية.

المسافات والتقاليد الأدبية فتصبح ذكريات الحج التي سجلتها الرواية المكتوبة وهي لقرائها جزءٌ من مفهوم مشترك للرموز الدينية والتعبير الذاتي واستيعاب للأماكن والشعوب.

**وجهات نظر حول الحج**

من سمات أدب الرحلات أنه يبين بوضوح أمورًا كثيرة؛ لأنه يعمد إلى وصف الحقائق بشكل موضوعي وإن كان في واقع الأمر بصدد كشف المجتمع الحضاري الذي يصف المسافر من خلاله ما يرى. وأحيانًا يكون من السهل التعرف على مجموعة من القضايا الجوهرية التي تدرج ضمنيًا، فتضفي شكلاً معينًا على الرواية بأكملها(٢١). وربما كان غريبًا على سبيل المثال أن يقوم بعض رحالة الهند البريطانية في القرن التاسع عشر بكتابة روايات تختص بفريضة دينية أساسية، فيتطرقون إلى قضايا استعمارية تظهر بوضوح على سطح انطباعاتهم الشخصية. يكتب مرزا عرفان علي بيك (١٨٩٥-٦) بشكل لا يقبل الجدل روايته ليقدم معلومات مفيدة ويصف أحداثًا مهمة لمنظمة كان ينتمي إليها تدعى منظمة الأنجوماني الإسلامية التطوعية التي تتكون من موظفين مدنيين وأصحاب أملاك ومسؤولي حكومة وتجار. ومثله مثل الكثير من الحجاج فقد أراد - وربما بإخلاص تام - أن يمرر بركات رحلته إلى الغير، ويساعد في تسهيل هذه الرحلة لمن ينوي القيام بها. لكنه في الوقت نفسه وبواقع عمله نائبًا لجابي الضرائب في الولايات الشرقية المتحدة، وموظفًا مدنيًا مرموقًا كأي هندي في البيروقراطية الاستعمارية، كان قد

(٢١) بدراسة الرحلات الأوروبية إلى أمريكا اللاتينية، يتمكن روبيرتو جونزاليز-من التعريف بما يسميه بالتحول في " طرق الحديث المهيمنة"، فالمسافرون في زمن ما، مثلاً، سيتحدثون عن أمور قانونية مستخدمين المفردات القانونية، في حين يسافر غيرهم خلال عصر آخر، فيعيدون صياغة أحاديثهم بمفردات علمية.

تشرب الاهتمامات الحكومية البريطانية، وتشكلت لديه قناعة بهويته بوصفه تابعًا وموظفًا بريطانيًّا. وكان يجيد الإنجليزية، وله ذوق إنجليزي يستسيغ الكريكيت والشاي كما كان يعرف كيف تجيد الحكومات التصرف.

وكانت أكثر المجموعات أهمية بالنسبة له هي المجموعة "الهندية المسلمة" ، وتلك فئة كان لها حضور متزايد في الدوائر الاجتماعية والسياسية في زمنه، وتكتسب لديه معنى جديدًا خلال رحلته، فهو يبحث عن الهنود المسلمين، ويأخذه الكبرياء بما يميزهم في وسط الأجانب، ثم يبتهج لتقواهم واصفًا مثلاً طوافهم المتواصل حول الكعبة، ومسيرتهم وهم حفاة إلى المدينة المنورة، كما لا يفوته أن يعلق على كرمهم وهم يهبون الأربطة والحدائق والمساجد. وفي الطريق إلى الحرمين وعند الوصول إلى هناك، يتقمص هو دور القائد المدني- سواء عمل ممتحنًا في المدرسية السلطانية التي أسسها الهنود في مكة أو اجتمع بمراقبي الحجيج في بومباي وفي جدة للتحقق من قيامهم بأدوارهم. وعند كل موقف نجده يتفكر في الطريقة التي يجب أن تتبعها الحكومة لفرض النظام ولتوفير الحماية والراحة والنظافة، ويخاطب الحكومة الاستعمارية مبينًا مسؤولياتها، كما وجه خطابه للأتراك في الحجاز. وأكثر ما يشغل اهتمامه هو وضع الفقراء من الهنود المسلمين وما يعانونه من ضعف وغش وسوء معاملة. وبعد عامين من طباعة روايته الأوردية راجع عرفان علي وترجم يومياته إلى الإنجليزية، وقد أضاف عرضًا للمناسبات كلما رأى الوضع مغلوطًا - وكان غرضه الأساس هو التأثير على الحكومة الهندية لتحمل المسؤولية في إعداد رعاياها المسلمين للحج.

وأكثر من هذا وذاك، ففي الرواية أيضًا تظهر روابطه العميقة مع أصدقائه، ورفقه بخادمه، وتجاوبه التلقائي مع رجل علم ودين صادفه في مكة، وشغفه بمعرفة العالم من خلال السياحة، وعلاقاته الطيبة مع الآخرين سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين. لكن منظوره السياسي يظل هو البؤرة التي ينميها فعل الكتابة نفسه، ويبديها للعيان. هذا وقد كان لغيره من الكُتّاب في عصره تجارب مشابهة في الحج قاموا بتسجيلها، وعلى الأخص بيجوم من البهوبال التي تبنت المفهوم البريطاني المثالي للحاكم "المصلح"- الذي يتعهد بتهذيب الخلق - حتى إنها دعت الأتراك إلى ترك مهمة إدارة الأراضي المقدسة لتتولاها هي شخصيًا (سكندر بيجوم ١٨٧٠: ١٤٠-١).

وتدور بعض هذه الروايات في إطار ديني محدد مثل رواية محمد معشوق علي (١٩٠٩) التي يصف فيها تجربته بصفته مريدًا للصوفي مولانا أشرف علي ثناوي. ويقوم الراوي بأداء فريضة الحج بعد إقامته في نزل هذا الولي كجزء من تدريبه على الإخلاص في العبادات والسيطرة على الذات تبعًا للخط الذي رُسِم له. وتتحمس روايات أخرى (أبو النور محمد ١٩٦٠) للمنطلق التهذيبي، وتستخدم الحج كمجال تجريبي لإثبات جدواه.

**روايات أخرى تأخذ المسار العلمي فتُكتَب نشرة إخبارية حكومية تراجع التاريخ والعادات المحلية ونظام التعليم وسياسية الحكومة**

وروايات أخرى تأخذ المسار العلمي فتُكتَب نشرة إخبارية حكومية تراجع التاريخ والعادات المحلية ونظام التعليم وسياسية الحكومة ( حَسَنُ الدين ١٩٣٥ مثلاً). وفي كل الأحوال، فإن عرض فريضة الحج هو عرض لشكل من أشكال الذات.

إن الكثير من الروايات المعاصرة عن الحج تحاول سبر أغوار النفس بشكل أكثر تحديدًا، فتعد هذا الفرض الجماعي العظيم فرصة مناسبة لامتحان مكانة الفرد بالنسبة للإسلام ذاته والأمة الإسلامية. ويشبه ذلك إلى حد ما البحث عن المعنى وعن الأصالة خارج مجتمع الإنسان نفسه لدى الذين يصفون أنفسهم بالعلمانية ويقومون بالحج لاختبار أنفسهم لكي يجربوا الإيمان بمفهومه البديلي، وربما للمشاركة في ذلك الإيمان بأنفسهم (كوهين ١٩٧٩)[٢٢]، شأنهم في ذلك شأن ما ألفناه في بعض أشكال أدب الرحلات الأوروبي والأمريكي الحديث. ومن هذا المنطلق يسمي عبدالله مالك - في أواخر السبعينيات - نفسه مسلم تهذيبي ويذهب مترددًا إلى الحج فيسير على حذر وهو يتعلم، كما يقول، مفردات جديدة، ويعاني كثيرًا في سبيل إيجاد نظير فكريٍّ لإسلامه واشتراكيته. ويعود الفضل إلى البناء النصيِّ لأدب الرحلات، مقارنة بأدب المقالة الأكثر تماسكًا، الذي مكنه من أن يستلذ بفكرة أو إحساس تحرك بداخله حين وجد نفسه متورطًا عاطفيًا ("اغرورقت عيناي بالدموع وأجهشت بالبكاء- ولم يكن لذلك علاقة بما أعتقد أو لا أعتقد")، ثم يلتفت إلى أمور أخرى في النص. هذا وقد تمت الإشارة فعلاً إلى مسألة البنية الرسمية لأدب الرحلات التي تجعله محببًا بالتحديد لنوع معين من الشخصيات المعاصرة التي تميل إلى التجربة والاكتشاف بدلاً من إيجاد الحلول (بريدجمان ١٩٨٦)[٢٣]. ويسمي مالك روايته حديثي ديل؛ أي شهادة القلب.

(٢٢) إيريك كوهين "الظواهر في تجارب السائح" مجلة سوسيولجي، العدد ١٣ ص ١٧٩-٢٠١. (١٩٧٩م) بالإنجليزية.

(٢٣) ريتشارد بريدجمان "السياحة في مارك توين" (مطبعة جامعة كالفورنيا، ١٩٨٦م) بالإنجليزية.

أما الخصلة التي تميز بها هذا المفكر العقلاني، وهو يتلمس العلاقات بين الأمور فهي محاولته إيجاد طرق يؤكد بها اختلافه عن المحيطين به. ومثال ذلك أني قد سمعت في عام ١٩٨٥م حكاية شفهية رواها شخص علماني يساري عن الحج، وتعمد أن يذكر أن كل الحجيج قد تعودوا أن يشعروا بالخوف في مكة وبالحب في المدينة، بينما كانت تجربته مخالفة تمامًا للمعتاد.

وسواء كانت هذه الروايات الحديثة جزءًا من عملية إعادة التعرف على الرموز الإسلامية أم لم تكن، فهي تميل إلى الخوض في موضوع أساس تسميه إحدى الكاتبات في توضيحها لقائمتها المفضلة من روايات الحج (زينب كاكاخيل ١٩٧٦: ٦-٧) بـ "شؤون القلب" و "التجارب الداخلية". وتسترسل الكاتبة مبينة أن النضارة التي تتميز بها هذه الروايات لا تعود فقط إلى توثيقها لتغييرات واقعية تفيد القارئ، بل إلى قدرتها على تصوير "التجارب الفردية والمتفردة "، تصوير قلب ونظرة الفرد الذي يعكس جمال الكعبة بشكل لا يتكرر مع فرد غيره. وليس غريبًا أن تنتقي هذه الكاتبة مفرداتها لوصف الرموز الدينية الرئيسة -الله، الوحدة، الكعبة- من الصوفية وهي التي تؤكد اهتمامها بالمشاعر الإنسانية، فتجعل الحج متميزًا عن غيره من الفرائض التي غرضها تقويم الأخلاق، في حين ترى أن الحج "وحده شأن القلب"، فهو "يخفف آلام الفراق"، وتقاليده تنتمي إلى عالم الأشواق المتأججة (عشق).

ورواية زينب كاكاخيل ليست الوحيدة التي تستخدم لغة كهذه. ولكن التعبير القديم عن التقليد الصوفي كان يتم بإقحام بيتين

من الشعر في سياق النص النثري السائد، وكانت قدرة الفرد على الاستشهاد بشكل ملائم بالأبيات الفارسية والأوردية الإيرانية من الشعر الصوفي دلالة واضحة على ثقافته ورقي فكره. ويبدو أن الروايات المعاصرة قد أحدثت تقاربًا بين مستويين من الكتابة: النثرية التي تركز على تصوير الأحداث الخارجية، والشعرية التي تهتم بالعواطف والشوق والفراق وتأتي في عرض السياق دون تعليق أو توضيح من الكاتب بأنه شخصيًا صاحب تلك الأبيات. أصبحت الكتابة الشعرية في الوقت الراهن هي لسان حال المؤلف[٢٤]، وكلما تغير المضمون فإن أسلوب الكتابة وأشكالها تتغير تباعًا. ولو أننا نظرنا إلى روايات القرن الثامن عشر لاتضح لنا أن هذا النوع من الكتابة له استمرارية تطورت من خلالها النصوص قياسًا على ما سبقها وشكل بعضها بعضاً. فهل تتطور النصوص في اتجاهات معينة بينما تنضب إمكانيات تطور أشكالها الروائية؟

يبين هاورد (١٩٨٠) في دراسته لروايات ما قبل تشوسر عن الحج لبيت المقدس أن هنالك إمكانيات معينة تتميز بها الكتابة عن الحج وتشهد تطورًا بمرور الوقت، وعلى رأسها أسلوب التساؤل. هل تشكل هذه الروايات مناظرها العامة بحيث يرى المسافر ما يراه من خلال عدسات صقلها الأدب؟ أشار فاسل (١٩٨٠)[٢٥] في وصف رحلات البريطانيين في القارة الأوروبية

(٢٤) للاطلاع على تحليل للتفاعل بين هذين المستويين من طرق الكتابة في مضمون آخر، انظر ليلى أبو لغد "مشاعر مبطنة: الشرق والشعر في مجتمع بدوي" (مطبعة جامعة كالفورنيا، ١٩٨٦م) بالإنجليزية.

(٢٥) باول فاسل "الخارج: أدب الرحلات البريطاني بين الحربين" (مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٨٠م) بالإنجليزية.

إلى أن القراءة تخلق تجربة السفر، بينما ناقش قباني (١٩٨٥)[٢٦] مسألة الدور الذي لعبه الخطاب الأوروبي عن الاستشراق، بما في ذلك روايات السفر، في منع رحّالة مثل ف. س. نيبول حتى من رؤية البلاد الإسلامية التي يرمي إلى وصفها. ويتعلم الكُتّاب ممن سبقهم ولو جزئيًا الشكل الذي يتوجب عليهم اتباعه في صياغة رواياتهم، وهو شكل يتغير بمرور الزمن- فعلى سبيل المثال تغير الشكل من استصغار النفس التقليدي المتبع في رواية زاردار التي سيأتي ذكرها في صفحة ٩٣ إلى الاستعارة الإجبارية المتبعة حاليًا بأن ينفي الكاتب نية الكتابة أصلاً.

والكثير من الأمور تدرج ضمنيًا في الروايات، فبعض مظاهر الحياة في عالم الكُتّاب يمكن استشفافها بالتركيز على الجمهور، الضمني أو المصرح به، في الرواية. وبينما يروي الكُتّاب قصصهم فهم يتابعون، بقصد أو دون قصد، محادثات تشكل جانبًا كبيرًا من كلماتهم المكتوبة. وتأتي كتاباتهم أحيانًا بالفعل كأجوبة لأسئلة يعرفون سابقًا أنها ستطرح، وأحيانًا كتأكيد لملامح شخص ما كما يريدونه أن يكون -مقارنة بشخص آخر مختلف عنه-، وأحيانًا أخرى تكون بمثابة تقويم وإصرار على موقف تجاه مسألة سياسية أو دينية كثر فيها الجدل. وفي بعض الأحيان يسجل هؤلاء الكُتّاب أفكارهم بشكل عفوي، ولا يدركون أنهم يعرضون الكثير من اهتمامات عبرت عنها مجتمعاتهم، فسكنت داخل عقولهم وشكلت تجاربهم التي اختلقوها وهم يكتبون.

(٢٦) رنا قباني "أسطورة الشرق بأوربا" (مطبعة جامعة إنديانا، ١٩٨٥م) بالإنجليزية.

## التمثيل المرئي داخل النصوص

إحدى الطرق التي يمكن استخدامها للتوصل إلى هذه المواضيع هي التمعن ليس في الكلمات فقط بل وفي التمثيل المجسد في النصوص[٢٧]. ولن يتوجب علينا التوغل في النص أكثر من مجرد النظر مثلاً إلى صفحات الأغلفة لكي نلمس التوجه المتزايد نحو جعل تجربة المؤلف نقطة تمركز النص ونحو إظهار كل رواية كنص متميز. انظر الشكل (١) في المصورة ١ صفحتي غلاف جنبًا إلى جنب، أولاهما على اليسار لكتاب زاردار خان (١٨٧٣) الذي تولى طباعته الهندي العظيم كاياث مدينة لكناو، نوّال كيشور. واشترك زاردار ونوّال في التأثر بالثقافة الفارسية كما هو معهود لأبناء الطبقة الارستقراطية، وفي حالة زاردار، الذين يعملون في الحكومة أو مع أحد الأمراء. وحسب التقليد المتبع، فقد سمى زاردار كتابه سفريات إلى الحرمين. ويمثل هذا الكتاب بافتقاره إلى الألوان وبحواشيه المزهرة وعنوانه البارز وإطاراته العلوية والسفلية المنسوخة، الشكل المألوف للعديد من الأغلفة لمطبوعات ذلك الزمن. وينسخ الإطار العلوي بالكلمات التوازن والتناظر العام للصفحة فيُبْرِزُ بخط أنيق بيتين من الشعر الابتهالي

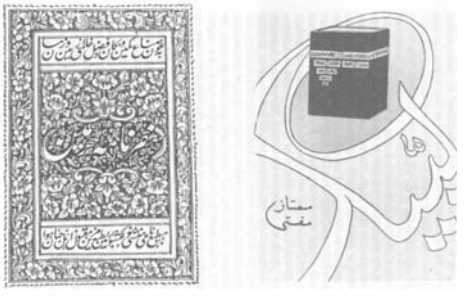

شكل (١) غلاف كتاب (اليسار) محمد زاردار خان (١٨٧٣م) : سفر نامة الحرمين؛ (اليمين) ممتاز مفتي (١٩٧٥م) : لبيك.

(٢٧) أنا شاكرة للدكتورة كاثرين آشر لتنبيهي لهذا الأمر ولمساعدتي بنظرتها المتمرسة في فنون التاريخ على كشف المعاني الكامنة في الرسومات التوضيحية المدرجة هنا.

بالفارسية ويعطي النص طابع التواضع المعتاد في مطبوعات تلك الأيام: "بعون خالق الإنسان والمكان وبعون صانع الأرض والزمان". ولا يظهر اسم المؤلف على الغلاف، ولكنه يُذكر عرضًا في وسط عبارات عرفية يصف بها الكاتب تضرعه الوارد في الصفحة الأولى.

أما الغلاف الثاني على اليمين فقد صدر بعد حوالي مئة عام (ممتاز مفتي ١٩٧٥)، وعليه تصميم بثلاثة ألوان لكلمة «لَبَّيك»، وهي الكلمة التي يرددها الحاج إبان دخوله مكة(*). أما الخلفية بأخضرها المصفرّ فتزيد من حدة اللون الأخضر الغامق، وهو اللون الإسلامي المفضل، وتجعله المجال المحيط بالكعبة التي تظهر في المنتصف العلوي للصفحة. وكُتِب العنوان بأسلوب حر متأرجح يشير به الحرف الأول، اللام، إلى المبنى المقدس بينما يدور من حوله الحرف الأخير، الكاف الممدودة، فيرسم الخط شكلاً مماثلاً لتصميم الكعبة وما حولها كما يوضح الشكل (٣) في المصورة ويظهر اسم المؤلف، ممتاز مفتي، بجرأة داخل حلقة كونها امتداد حرف الكاف نفسه إلى الأسفل، وقد كُتِبَ بزاوية علوية تميزه عن الفارسية تربطه بعربية القرآن والعالم الإسلامي الأكثر اتساعاً. ويضفي هذا الغلاف على الكتاب

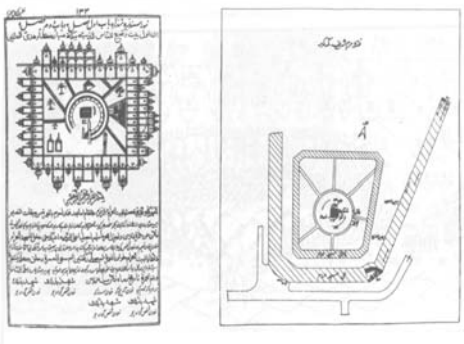

شكل (٣) مخطط الكعبة (اليسار) وزير حسين خان (١٨٨٠م) وكيل الغرباء؛ (اليمين) سلطان داود (١٩٦٣م) سفر نامه الحجاز.

(*) يقول المحرم التلبية عند شروعه في النسك عند إحرامه، وعلى هذا فهو يقولها عند الميقات، وليس عند دخوله مكة المكرمة فقط . (المحرر)

صبغة الرواية الأدبية، وبالفعل فهذا ما تبادر إلى ذهن صديقي الذي ذكر لي هذا النص- وذلك افتراض منطقي إذا ما أخذنا في الاعتبار العنوان الشاعري وشهرة الكاتب بصفته أديبًا بارزًا.

وكما هو الحال في الرواية الأدبية، فإن الغرض من كتابة هذه الرواية وغيرها من روايات الحج الحديثة، هو إيصال الإحساس بفورية التجربة. وقد تلقت الروايات إطراءً عظيمًا المرة تلو الأخرى لكونها نجحت في تصوير الحج بطريقة حيوية ومحسوسة حتى يكاد القارئ أن يراه رؤيا العين، فيتخيل نفسه مكان الكاتب ويعيش تجربته افتراضياً. وعلى سبيل المثال، فإن رسائل القراء التي تشكل مقدمة رواية محمد رضا أنصاري (١٩٦٥) تثني على كونها سينما واقعية وتقسم على أنها تجعل القارئ يشعر وكأنه قام بأداء الحج بنفسه. أما النص ذاته فقد تم توظيفه لتصوير الحج. وتقول هنا كلمة «لبيك»، التي هي عنوان الكتاب: "أنا حاضر"، وتطوف حروفها بالكعبة لتنقل التأثير نفسه الذي سيحققه المؤلف بوصفه الحج للقارئ.

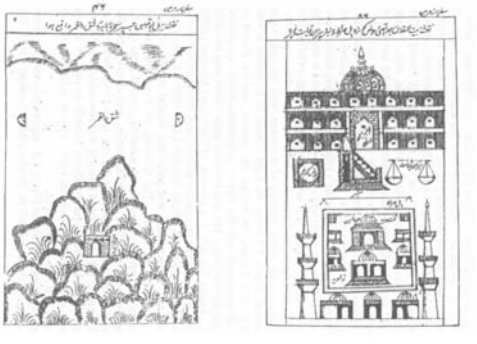

شكل (٢) رسوم للأماكن المقدسة والشعارات (محمد زاردار خان ١٨٧٣م سفرنامة الحرمين).

وتوحي رسومات الأماكن المقدسة كذلك بانتقالات مهمة، فالرسومات السابقة التي ظهرت في الروايات كانت تهتم بالتوازن وبالتشكيلات النمطية (كتلك التي زينت صفحة الغلاف

لكتاب زاردار) وقد تتضمن عناصر من معجزات يعتقد أنها تجلت ذات مرة أو متوقع حدوثها في زمن لاحق. ( الشكلين (٢) و (٣) لمنظرين من كتاب زاردار ١٨٧٣) يبين الشكل (٢)، على اليسار، رسم للمكان الذي انفلق فيه القمر ويبدو القمر وقد انشطر نصفين، أما الشكل (٢) ، على اليمين، فيبين رسم للمسجد الأقصى في القدس وكذلك حوض الكوثر والمنبر والصراط والميزان، وجميعها صور يفترض أنها ستقوم من ذلك المكان، فهو بذلك يجمع بين الحقيقة المرئية وغير المرئية(*). الشكل (٣)، على اليسار، هو عبارة عن رسم للمسجد الحرام (١٨٨٠) يغلب عليه طابع البناء في العصور الوسطى وقد رسم من منظور علوي جعل الجدران الجانبية تبدو منبسطة (وزير حسين خان ١٨٨٠-١). ومثل هذه الرسومات تخطط بنظام شديد يجعل منطقة المنتصف بؤرة الاهتمام فتتبع بذلك التقليد السائد في رسم الماندالا، وهي طارة يُمثّل بها العالم دائريًا عند الهندوس والبوذيين. أما الشكل على اليمين فيتحاشى الشكليات ليقدم مزيدًا من الواقعية فيرسم مخطط بناء صحيح للمسجد دون أن يبدي أي اهتمام بالجدران أو القباب أو الأبواب، ويميز باتجاهات الخطوط العرضية ما لم يكن له أهمية سابقة: الفرق بين البناء القديم والإضافات الجديدة (سلطان داود ١٩٦٣). وعليه فإن المؤلف السابق يقدم نفسه كجزء تابع لتقليد تاريخي وجمالي عريق، في حين يعطينا المؤلف الحديث صورًا واقعية ومعلومات جديدة.

(*) ما يذكر هنا من تصور للأمور المغيبة لا يحل التوغل فيه، بل يجب التوقف عند ما جاءت به النصوص (المحرر).

ويسجل الرسم الخلاب في الشكل (٤) قمة أحداث الحج وهو الوقوف بعرفات (عبدالرحيم ١٩١٥). إن هذا الرسم المنظم ذو الخطوط البسيطة يعيد إلى الأذهان المطبوعات النسيجية الكبيرة في شمال الهند، وتكوّن الصور المتكررة للخيام والجمال والحجاج الراكبين على ظهورها خطًا قويًا بعرض الصفحة السفلي، بينما يتوازن جانبي الصورة بمدافع الجنود الأتراك وهم في زيهم العسكري الحديث، ثم تقدم التلال الإطار العلوي لبؤرة المنتصف - التجمع والوعظ والصلاة على الجبل المقدس. ولو أن رواية ما كتبت في عصرنا الحالي لضمت صورة فوتوغرافية التقطت من الجو بدلاً من هذا النوع من الرسم النمطي المتناسق.

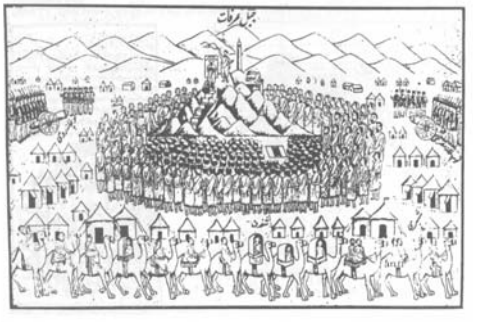

شكل (٤) جبل عرفات (عبدالرحيم ١٩١٥م: سفر نامة رحيمي)

وأخيرًا فإن الشكل (٥) يعرض صورتين فوتوغرافيتين لبعض المؤلفين علمًا بأن الكثير منهم لم يقدموا صورهم للطبع، ربما خوفًا من الإساءة إلى مشاعر أولئك الذين يعتقدون أن الصور تثير الشبهات، أو من أن يعتقد بعض المطلعين عليها أن المؤلف مزهو بنفسه. ولكن رغم محدودية العدد المتوفر من الصور إلا أن المقارنة مرة أخرى

شكل (٥) صور بعض المؤلفين (اليسار) غلام الحسنين (١٩٣٥م) سفرنامة؛ (اليمين) صابا مصطفى (١٩٧٩م) فخرون كيدمان من.

توحي بأن هناك اتجاه متزايد نحو الفردية. يظهر في الصورة على اليسار شخص مرهف الحس يرتدي الإحرام (غلام الحسنين ١٩٣٥)، كما تظهر في الصورة الثانية امرأة في حالة انبهار وهي زوجة ضابط في جيش مدراس (صابا مصطفى ١٩٧٩). والقصد من وراء هذه الصورة هو نقل طبيعة العاطفة الخاصة للحج - الموضوع الذي يقصد نص المؤلفة توضيحه إجمالاً، أما الصورة الأخرى فما هي إلا تمثيل نوعي للحاج بقدر ما يمكن لصورة فوتوغرافية التعبير عنه بشكل تقليدي.

**الخلاصة**

يعد السفر إلى مكة المكرمة سفرًا من نوع خاص جداً، فالذهاب إلى مكة هو بمثابة العودة إلى أرض الوطن الروحي[٢٨]. وإضافة إلى أن الغرض من شد الرحال إليها واضح، فإن المكان ذاته - مقارنة بغيره من وجهات السفر الأخرى - قد تم التعرف عليه من خلال مصادر ثقافية واسعة من قصص وأدعية دينية وقد تم الآن إعادة إخراجها بطرق حديثة جعلت الأماكن المقدسة أكثر تواجدًا وحضورًا[٢٩]. والأكثر من ذلك أن الرحلة تسير وفق خطوط غير مرئية يُحدثها المؤمنون مع كل صلاة، ومع كل وضع يتخذونه خلال النوم، ومع دفنهم في القبور، ففي النهار يؤدي

(٢٨) هذه الجملة التي استخدمها جيلاني كامران "حج كي سفرنامون كي ورايات" في كتاب "كي بهتارين مقالات" تحرير سجاد تقوي (مكتبة أوردو زابان) بالأوردية، ودراساته من الأعمال العلمية القليلة التي تستعرض روايات الحج الأوردية. ولقد استفدت منها بمساعدة شخصية من البروفيسور كامران.

(٢٩) يتم في الوقت الحالي بث مشاعر الحج مباشرة عن طريق الأقمار الصناعية للمشاهدين في أنحاء العالم. وتجعل الروزنامات وكل أنواع الفنون صورة الكعبة المشرفة أشهر بناء على مسافة بعيدة لكل المسلمين. ويقوم التلفزيون الباكستاني، كغيره من تلفزيونات دول كثيرة، ببث برامج خاصة خلال موسم الحج، بما في ذلك مسلسل من ست حلقات، شاهدته في عام ١٩٨٥م، لتهيئة الحجاج لرحلتهم.

الحجاج شعائر الهدي، وهم في ذلك يتواصلون مع إخوانهم المسلمين في كل مكان في العالم الذين يقومون بالفريضة نفسها وهم يحتفلون بعيد الأضحى. وبالشروع في أداء فريضة الحج، فإن الحاج يؤكد مبدئيًا مسؤوليته الشخصية في طاعة الله ويجد لنفسه مكانًا في مجتمع المؤمنين. ومهما كانت رغبة الحاج في السعي وراء اكتشاف ذاته الواعية المتفردة من خلال تجربته وكتابته - وهو الموضوع الذي تم اقتراحه كصفة بارزة للروايات الحديثة -، فإن مهمته يعتريها بعض التوتر إزاء التزامه ببرنامج الحج المفروض وبالمجريات الإسلامية المعتادة، فهو يحاول أن يحتذي بالنموذج النبوي، شخص الرسول محمد ﷺ، ويسير على خطاه بالفعل في هذه المناسبة بالذات.

وبينما نتتبع الأنماط المتغيرة للتعبير عن النفس في روايات الحج نجد أن هذا المنطلق يوحي بأن هنالك أكثر من مجرد انعكاس للفردية الأوروبية التي يتم استقراؤها في أماكن وظروف غير مألوفة. ولو كان شخص ما بصدد "العثور على نفسه"، فهو يفعل ذلك في وسط جماهير من الحجيج يقومون بأداء طقوس فريضة تحدد ملابسهم وسلوكياتهم لغرض معين وهو إزالة الفروق الإجتماعية والعرقية والإقليمية التي تميز المؤمن عن غيره من المؤمنين. فهذه الروايات تظل نتاج مضامين التفاعل مع جوهر العقيدة الإسلامية، حتى وإن قلدت أدب الرحلات الأوروبي أو ساعد في ظهورها نظام سياسي واجتماعي حركته وسيطرت عليه التكنولوجيا الأوروبية.

ينطبق كل هذا على جميع الروايات الإسلامية. والروايات التي مصدرها جنوب آسيا تشترك سويًا في الصفات نفسها -

صفات لها جذور في الشخصية الجماعية للحضارة الهندية خاصةً، وفي التجربة الطويلة مع الحكم الاستعماري الذي قدم بدائل كثيرة للقيم الأخلاقية جعلت الحضارة الأهلية أكثر وعيًا بأصالتها وأكثر مقاومة على حد قول جيرتز (١٩٦٨)[٣٠].

وفي الوقت نفسه فإن مصطلح الحكم البريطاني قد شجع الذاتية الدينية في مجتمع جماعي. وتطور هذه التجارب أشكالاً متعددة من التصريح الذاتي لمسلمي جنوب آسيا، ولكن الروايات التي تركز على الرموز الأساس التي يمثلها الحج تعرض مواضيع تدور بوجه خاص حول قضية محددة وهي الكيفية التي جرب بها الفرد واستوعب كونه مسلمًا. ولم تكن الهوية الإسلامية الأمر الوحيد الذي شغل أولئك الذين نطلق عليهم اسم مسلمي جنوب آسيا، ولكنه حتمًا كان أمرًا بالغ الأهمية بالنسبة لهم. ونرى في رواياتهم شيئًا من المضامين المتغيرة لتلك الهوية وعلاقتها بشؤون منافسة ومكملة لها -كالعمل والتهيئة الإخلاقية والمساعي الروحانية والنوع الجنسي وقطرية الأراضي. وتتيح لنا النصوص فرصة لسماع أصوات الناس وهي تخبرنا بطرق كثيرة مختلفة عن طبائعهم وعن آرائهم في الإسلام وعن الأماكن التي يقصدونها وعن الناس الذين يتقابلون معهم.

**شكر**

أعرب عن امتناني لمؤسسة جون سايمون جوجنهايم للمساعدة المقدمة خلال عام ١٩٨٣-١٩٨٤م، وللمعهد الأمريكي للدراسات الباكستانية والجمعية الأمريكية للفلسفة على المنح التي تكفلت بالسفر. كل ذلك الدعم أسهم في تمكيني من جمع المعلومات

(٣٠) كليفورد جرتز "تطبيق الإسلام" (مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٦٨م) بالإنجليزية.

والقيام بالعمل المبدئي لهذا المشروع الذي واصلت العمل فيه مرة أخرى في خريف ١٩٨٧م بفضل معهد ديفز للعلوم الإنسانية الذي وفر لي الوقت بمنحي إجازة من التدريس، وأعطاني فرصة لمرافقة زملاء متميزين.

**الروايات المستشهد بها(*):**

عبدالله مالك (في أواخر السبعينات) شهادة القلب: مذكرات حاج شيوعي، لاهور، كوثر.

عبدالمجيد داريابادي (١٩٢٩) السفر إلى الحجاز، كلكتا، الدار الإنشائي المجيدي، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠.

عبدالنور محمد بشير (١٩٦٠) لبيك يا سيدي: مذكرات بشير المسافر إلى المدينة، كوتلي لوهاران، سيالكوت، كتب خانة، ماهي طيبة.

عبدالرحيم، منشي (١٩١٥) كتاب سفريات رحيم أو رفيق الحج، كلكتا، مطبعي قصية.

سراج الدين بسروري، مستري (١٩٢٦) مذكرات رحلة إلى الحجاز، دلهي، مطبوعية محبوب المطبعة.

غلام الحسنين صاحب فاضل بانيباتي، الحاج مولانا خواجة (١٩٣٤-٥) رحلة حاج المسماة بزاد الآخرة، دلهي، دار مانعة للنشر.

حسن الدين، خامش (١٩٣٥) أوراق عن الحجاز، آقرا، دار عزيزي للنشر.

عرفان علي بيك، مرزا (١٨٩٥) رحلة للحجاز، لكنو، نوّال كيشور.

(*) تقوم دارة الملك عبدالعزيز بالتعاون مع عدد من الأساتذة المختصين من القارة الهندية ومصر بمشروع تصوير الرحلات والكتابات عن الحج التي دونت بالأوردية والفارسية والعمل على رصدها وترجمة الملائم منها. (المحرر).

عـــرفـــان علي بيك، مـــرزا (١٨٩٦) الحج إلى مكة، بينارس، دارشندرابرابها للنشر.

محمد إمداد سابيري (١٩٨٦) المرة تلو الأخرى في بيت الله: رحلات الحج من ١٩٥٣ إلى ١٩٨٣، دلهي، دار جمال للنشر.

محمد قلب علي خان (١٨٧٢) قنديل الحرم، رامبور، مطبعة حسين.

محمد معشوق علي (١٩٠٩) رحلة الحج إلى بيت الله الشريف، لكناو.

محمد مصطفى خان شفتا، نوّاب (١٨٤١) سراج منير، ترجمة (من الفارسية للأوردية)، إقرأ، مطبعة أخبار إقرأ، طبعة عام ١٩١٠.

محمد رضا أنصاري (١٩٦٥) السفر للحج، لكناو، فرنجي محل كتاب غار.

محمد ظفر الله خان (١٩٦٧) الحج إلى بيت الله، لندن، مسجد لندن.

محمد زار دار خان (١٨٧٣) السفر إلى الحرمين، لكناو، نوّال كيشور.

ممتاز مفتي (١٩٧٥) لبيك، لاهور، التحرير.

رفي الدين فاروقي مراد اباد (١٧٨٦) رواية السفر للحجاز، ترجمة (من الفارسية للأردية) مولانا ناظم أحمد فريدي أمروهاوي، لكناو، دار تنوير للنشر، طبعة عام ١٩٦١.

صابا مصطفى (١٩٧٩) في سفوح الجبال: رواية للحج إلى الأرض المقدسة، بنقالور، دار الأكتريك قوامي للنشر.

شوريش كشميري (١٩٦٧) مكان زرته ليلاً: أربعة عشر يومًا في الحجاز، لاهور، مطبوعات شيرتان.

صديق حسن خان بهوبالي (١٨٧٢) رحلة الصديق إلى البيت العتيق، ترجمة (من الفارسية إلى العربية)، بومباي، شرف الدين وأبناؤه، طبعة عام , ١٩٦١ .

سكندر بيجم بهوبالي، نوّاب (١٨٧٠) الحج إلى مكة، ترجمة السيدة ويلوبي-أوزبورن، مع خاتمة كتبها الملازم العقيد ويلوبي-أوزبورن، وملحق، ترجمة صاحب الفضيلة ويليام ويلكينسون، لندن، مطبعة ألن وشركاه.

سلطان داود (١٩٦٣) رواية رحلة للحجاز، لاهور، نور كيمباني.

وزير حسين خان صاحب باهادور، سيد (١٨٨٠-١) وكيل الغلابا، لكناو، نوّال كيشبور.

زينب خاتون كاكاخيل، بروفيسور (١٩٧٦) في مواجهة تألق التوحيد: رواية شاهد عيان لسفر الحج وبيت الرسول، لاهور، دار حماية الإسلام للنشر.

# محاولات التدخل الروسي

## في الخليج العربي

## ١٢٩٧-١٣٢٥هـ/ ١٨٨٠-١٩٠٧م

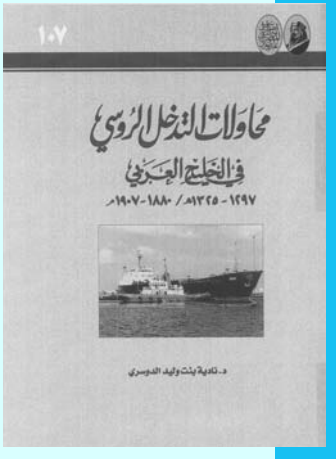


يصدر قريبا

يقدم هذا الكتاب دراسة تاريخية لمحاولات التدخل الروسي في منطقة الخليج العربي في الفترة الواقعة بين عامي ١٢٩٧-١٣٢٥هـ/الموافقة لما بين عامي ١٨٠٠-١٩٠٧م.

وقد تناولت الكاتبة موضوعات مختلفة في هذا الإطار منها الأنشطة السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية التي قامت بها روسيا في المنطقة واتصالاتها بالقوى السياسية في ذلك الوقت، ومنها اتصالها بالملك عبدالعزيز - رحمه الله - الذي كان يتأهب لإعادة تأسيس الدولة السعودية، ونشر الأمن والاستقرار بالمنطقة.

ومما يزيد الكتاب أهمية استعانته بعدد من الوثائق الروسية، واستناده على مجموعة من المصادر الأجنبية المعربة، وغير المعربة، وما دار حول موضوع الكتاب من ندوات وبحوث.

ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩/٢١٦٤ - فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد الكتروني info@darah.org.sa